

حول اسم ونشأة مدينة المسيلة: مساهمة تاريخية

د. بيرم كمال

قسم التاريخ - جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كثيرة هي الكتابات التاريخية والجغرافية التي تناولت مدينة المسيلة في إطار تاريخ المغرب الإسلامي، وقد تمت معلومات مهمة خاصة في الفترة الإسلامية الوسيطة، كما ساهمت الدراسات الحديثة الأجنبية التي قام بها على وجه الخصوص الأثريون والمترجمون الفرنسيون بداية الاحتلال، في إعطاء منطقة المسيلة كغيرها من مناطق الجزائر صورة معرفية هامة حول الوجود الروماني والبيزنطي، ما كانت تفتقده الكتب الإسلامية التي سبقت فترة قدومهم إلى الجزائر، إلا أن الملفت للنظر أن كلا الكتابات الإسلامية والأجنبية أغفلت الفترات السابقة لهما، ونعني بها الفترة البربرية.

ومدينة المسيلة شكلت عندنا إشكالية في إطار هذه الأبحاث التاريخية من حيث تاريخ تأسيسها وأصولها وتسميتها وعلاقتها بالمدينة الإسلامية "المحمدية" والمدينة الرومانية زابي *zabi justiniana*.

ومن أجل معرفة إضافية للموضوع ندرج بعض الأبحاث التي تناولت المسيلة للمقاربة والتصحيح.

أهم الأبحاث التاريخية حول منطقة المسيلة

الحديث عن الكتابات والأبحاث التاريخية الحديثة حول منطقة المسيلة، هو حديث عن الأبحاث الأجنبية المتعلقة بالتاريخ الروماني البيزنطي أكثر من غيره، وهو اتجاه سار فيه مختلف الأركيولوجيين والباحثين الفرنسيين عند دخولهم أرض الجزائر، ولم يكن اهتمامهم بالحضارة الإسلامية إلا ما تعلق بنترانها مع الآثار الرومانية أو ما تعلق بالآثار الإسلامية البارزة خلال العهود الزاهرة للإمارات الإسلامية بالمغرب العربي كالحمايين. يمكن اعتبار الفترة الفرنسية بداية البحث الأثري ليس لمنطقة المسيلة فحسب، بل لمختلف المناطق الأثرية بالجزائر، فقد اغفل المؤرخون والكتاب العرب جانب التدوين لها خاصة خلال العهد العثماني، ولم تكن تعطى عناية لمثل تلك المواقع الأثرية من حصون وقلاع ومدن رومانية لأسباب مختلفة.

ومنطقة المسيلة التي وصل إليها الاحتلال الفرنسي بداية 1840، شكلت عند بعض الضباط الفرنسيين مجالا خصبا لأبحاث تاريخية ومونوغرافية دونت في مختلف الدوريات والمجلات، خاصة المجلة الإفريقية *revue africaine* والمجمع الأركيولوجي لمقاطعة قسنطينة *recueil archeologique de Constantine* فقد اهتم الضابط بايان¹ (N.Payen) بداية الاحتلال الذي شغل

¹ - Payen (M) : colonisation du Hodna, in RSAC 1893, pp148-145.

منصب رئيس المكتب العربي لبرج بوعريريج من 1858-1869 بالتاريخ المحلي لإقليم الحضنة والتل، وساعده مركزه هذا في التنقل عبر أرجاء المسيلة و الاوراس بحثا عن الآثار الرومانية بها، كما اشتهر بالأبحاث الأثرية و الكتابة التاريخية لمنطقة المسيلة ، حيث قام بدراسة فريدة من نوعها بإقليمها ، ونشرها عام 1864 في حوليات قسنطينة ، (Recueil de Constantine) تحت عنوان "أعمال الري القديمة" التي لا يزال عدد من أثارها بجزء من المسيلة؛ إذ وقف على عدد هام من أعمال الري الرومانية واجتهد في إعطاء وصف دقيق لها مع دراسة لمكوناتها وتقنية بنائها، كما حاول أن يؤرخ بعضا منها. قدم الضابط بايان عدة مقالات حول منطقة المسيلة ،منها مقال استعمار الحضنة colonisation du hodna الذي نشر في حوليات قسنطينة سنة 1893. و دراسات حول آثار الرومان بالاوراس و طبنة .

كما قدم من جهته الضابط الفرنسي دو بواسون De Boysson دراسة هامة حول الآثار الرومانية بالمنطقة ،والتي نشرت عام 1869 و التي تطرق فيها إلى قبور الدولمن المتواجدة بمنطقة الجرببال المعاضيد ، و قد أورد في هذه الدراسة وصفا للقبور و تفاصيل حفريات أجراها في عدد منها. ومن جهته قدم ستيفان جزال (St.Gsell) ،بحث في إطار عملية جرد لأعمال الرومان الخاصة بالري بالجزائر ونشر بحثه سنة 1902 تحت عنوان " تحقيق إداري حول أعمال الري القديمة بالجزائر" و خصص في بحثه هذا جانبا لمنشآت الري بالمسيلة ،دون أن ننسى الأطلس الأثري له الخاص بالجزائر. خلال الأربعينات و الخمسينات، قام الباحث ريمون فوفري R. Vaufrey² بعملية مسح أثري جزئي اكتشف خلالها بعض المواقع العائدة إلى أواخر العصر الحجري القديم و العصري الحجري الحديث.

كما قام براديز (J.BARADEZ)، بدراسته اعتبرت من الأبحاث الجديدة والهامة ، " فوساتوم أفريكائي" (Fossatum Africae) أشار إلى جزء هام من منشآت الري في جنوبي منطقة المسيلة و تحدث عن الأهمية التي تميزت بها منطقة المسيلة حتى جعلتها مطمعا اقتصاديا للاستعمار الروماني ونشرله مقالا ملخصا لأعمال الري الرومانية التي بينتها الصور الجوية في منطقة تعتبر حاليا سهبية، خلال المؤتمر الوطني التاسع و السبعين للمؤسسات العلمية بالجزائر سنة 1957 ، و آثار في مداخلته مسألة تغير المناخ كما طرح مسألة أصل هذه الإنجازات.

خلال نفس الفترة كان جاك تيكسي³ J. Tixier معلمًا بمدرسة الهامل جنوب المسيلة و كان من هواة علم ما قبل التاريخ حيث خطى أولى خطواته في هذا المضمار بمنطقة بوسعادة قبل أن يصبح من أهم المختصين في الدراسات التقنية للصناعة الحجرية على المستوى العالمي، و قد قام بمسح

² -R. Vaufrey ;, Préhistoire de l'Afrique du Nord. T.1 : Le Maghreb, Libraire Masson et Cie, Paris, 1955

³ -J. Tixier, :Le gisement préhistorique d'El-Hamel, Libyca, A/P/E, II, 1, 1954, p. 79

المنطقة و اكتشاف عدد من المواقع و أجرى حفريات في موقعين هما الهامل⁴ و دخلة السعدان⁵ التي توجد الى الجنوب من مدينة بوسعادة .كما قدمت الأستاذة سليمانى سعاد⁶ بحث لنيل شهادة الماجستير نعتبره قيم من عدة جوانب كونها تحرت المنطقة ميدانيا و عاينت الآثار الرومانية و دقت في كثير من الأمور التي غفل عنها غيرها من الباحثين الفرنسيين خاصة بقايا المنشآت الرومانية الخاصة بنظام الري بمنطقة المسيلة .

مدينة المسيلة الرومانية وإشكالية التسمية وتاريخ التأسيس

هناك إشكالية لم يفصل فيها الكتاب والمؤرخون ، ونعني بها العلاقة بين اسم المسيلة الإسلامية واسم زابي *zabi* اي المسيلة الرومانية ،بحيث لم نعثر في الكتابات التاريخية القديمة اللاتينية على اسم المسيلة كما تعرف حاليا ،ولا حتى في النقوش الأثرية الرومانية .إلا أن الكتابات الأجنبية الحديثة التي تلت الاحتلال الفرنسي منذ 1858 ربطت المسيلة المدينة البربرية الأصل التي تقع على وادي القصب بالمدينة الرومانية زابي جوستيانا التي تبعد ب4 كيلومترات شرقها.

كان موضع مدينة المسيلة التاريخية أي البربرية الأصل على حواف وادي سهر او القصب حاليا و على أنقاض خرائب تعرف بخربة تليس ، الذي ينسب حسب الذاكرة المحلية الى احد عرب الحجاز تارة و هذا القول ضعيف جدا ،انطلاقا من طبيعة المسيلة البربرية وسكانها من قبائل البربر قبل تاريخ قدوم هذه الشخصية العربية والتي لانعرف عنها شيء، وهناك من يرجع اسمها تارة أخرى إلى قائد روماني يدعى ايليس .*Ellice* وكلا الروايتان لا تتحدث الا على جزء من مدينة او حي يحمل اسم خربة تليس الى يومنا هذا ، بينما تتكون المدينة من أحياء شرق وادي السهر وأحياء غربه ،وكانت على بعد 4 كم من خربة بشيلقا او المسيلة الرومانية او *zabi justiniana*وهي مدينة تقع بالقرب من مواقع رومانية بالحضنة مثل خربة الجساسية و آراس *Aras* أو تارمونت ومقرة *Macri* وبين قرطاجة⁷ والقيصرية.

وخلال الاحتلال الروماني لم نعثر بعد على اسم المسيلة الروماني ،وربما هذا دليل على أن المواقع الرومانية هي التي اختصت بأسماء رومانية في حين حافظت المدن البربرية ومنها المسيلة

⁴- J.Tixier, : Les abris sous roche de Dakhat es-Saâdane (Commune mixte de Bou-Saâda), I - Les industries en place de l'abri B, Libyca A/P/E, III, 1, 1955, p. 81

⁵-Ibid.

⁶-سعاد سليمانى :منشآت الري القديمة بمنطقة الحضنة ،مذكرة ماجستير في التاريخ جامعة قسنطينة،للإشارة أن الأستاذة سليمانى قدمت جهدا نظريا وميدانيا في متابعة المنشآت الرومانية ذو قيمة علمية كبيرة بالنظر الى حالة اندثار اغلب هذه المنشآت بعد البحث.

⁷- Maguelonne :,J:Monographie Géographique et Historique De la tribu du Hodna Orientale in. R.S.A.C, 1909,p,9.

على اسمها البربري فقط. وكانت منطقة المسيلة خلال الحكم الروماني جزءا من مقاطعة موريطانيا السطايفية ملامسة لموريطانيا القيصرية بعد التقسيم الجديد لدقليانوس أواخر القرن الثالث الميلادي.

كما ربط المؤرخون العرب اسم مدينة المسيلة القديمة بموقع يدعونه ببشليقة كما جاء في كتاب البكري⁸، و ابن حوقل وبشيلقا عند غيرهم ، والذي بني على أنقاض مدينة قديمة كانت تدعي بزابي zabi التي تم التعرف على هويتها من خلال النقوش المكتشفة بآثارها 1 (نقيشة عثر عليها بمنزل القايد سفار التومي بالمسيلة سنة 1858). وكانت سنة 1858 هي بداية اهتمام الأثريين و المكتشفين و الضباط الفرنسيين بتاريخ المسيلة الرومانية انطلاقا من هذه النقيشة ،عندما كتب ليون رينيه LEON RENIER⁹ مقال اكتشاف اثري في المجلة الإفريقية صفحة 324 حول نقيشة أثرية لمدينة زابي الرومانية ،مما دفع بالباحث الأثري بويل POUILLE إلي التنقل إلى مدينة المسيلة خلال شهر نوفمبر 1859 واستغرق شهر كامل في دراسة النقيشة التي دله عليها المعمر الفرنسي ياربيت BARBET و هي حجرة بطول 1,98 سم و عرض 0,42 سم كتب عليها ما يلي :

Edificata est afundamentis Muic civitas qua justiniana Zabi subtemtemporibus :
domini nostri piissimi et invicticimi

وقد ترجمت بالفرنسية إلى:

Sous le règne de notre seigneur très pieux et très vaincu a ete construite
depuis les fondations la ville de Miuc qui fut Zabi la justiniene;

و تعني بالعربية حسب اللفظ اللاتيني "هنا تم بناؤها ،منذ تأسيسها المدينة الجديدة لزابي جوستيانا تحت إمارة إمبراطورنا المنتصر دومنيوتستريب سيميا نتيفيكس"¹⁰ بينما تختلف ترجمة فايستات Vaysette¹¹ في السطر الثالث حول اسم الإمبراطور الروماني، كما تختلف عنهما ترجمة ليون ريني¹²، René leon بحيث يسردها: [تحت تاج مولانا المنتصر والجليل بناء منذ الأساس مدينة ميوك التي هي زابي جوستيان] zabi justiniana¹³.

⁸ -البكري: المسالك والممالك، تحقيق، مال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، ج 2، ص 239.

⁹ - Vayssette,(E) :visite a Boussaâda et m'sila in revue africaine :1873,p,98.

¹⁰ - Féraud,(ch) :Histoire des villes de la province de Constantine ,M'sila, in Recueil des Notice de la société archéologique du province de Constantine,1872-, pp324-325.

¹¹ - Vayssette,(E) :op-cit:1873,p,98.

¹² -- Poulle,(A):Ruine de Bechilga (zabi) ,in RAF N°5,1861,P200:op-cit,p196-6--

¹³-Despois ,(J) : Le Hodna (Algérie). Paris, P. U.F., 1953. - 410 p., 33 fig., 20 pl., cartes h.t. (Publ. de la Faculté des Lettres d'Alger).

-Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest (en collaboration avec R. Raynal). Paris, Payot, 1967. - in 8°, 570 p., 43 fig. Le Djebel Ousselat, les Ousseltya et les Kooub. Cahiers de Tunisie, 1959, pp. 407-427:despois(j) : La Bordure saharienne, p2

ومن المعروف انه لا توجد بمدينة المسيلة آثار رومانية إلا ما تم جلبها إليها من مواقع رومانية قريبة لاستعمالها في أعمدة مسجد الرومانية العتيق بحي الكراغلة سنة 1816 او في أبنية بعض المنازل ،لذلك فالحديث عن زابي هو حديث عن المدينة الرومانية ببشيلقا و ليس مدينة المسيلة البربرية أو الفاطمية(المحمدية).وبعد عدة زيارات ميدانية للنقيشة الأثرية من قبل المترجمين والباحثين الفرنسيين أمثال فايسات Vayessete و ريني Réne و فيل و فيرو Féraud و بول Poule خلال الستينات من القرن 19 فقد سادا اسم زابي جوستينانا على مدينة المسيلة الرومانية التي تعرف الآن بخربة بشيلقا أو بشيلقا بكسر اللام كما يعرفها المؤرخ العربي البكري¹⁴.

لقد امتد نفوذ البزنطيين عقب اندحار الوندال في سهول المسيلة الشمالية الغنية بالمياه الآتية من السلاسل الجبلية التلية ،كما عملوا على مراقبتها وحراستها عبر مدن مثل فاقس vaccis التي يذكرها المؤرخ يلين Pline بأنها كانت عهد الرومان بمثابة سوق التي تبعد ب10 كم عن مدينة المسيلة للإنتاج الزراعي للمقاطعة الداخلية للإمبراطورية¹⁵. أما عن تاريخ إعادة تأسيس المدينة الرومانية زابي Zabi بعد خرابها فترة الغزو الوندالي والتسمية ،فيرجعها المؤرخون إلى سنة 539م¹⁶، و البعض الآخر إلى 541م¹⁷، وهي السنة الأقرب باعتبار القائد سولومون تحرك من قرطاجة نحو المنطقة في خريف 541 .

ذكر المؤرخ بروكوب Procope في كتابه السادس أن عملية إعادة بناء المدن بإفريقيا قد بدأت من طرف القائد بليساير Belissaire سنة 533م كما يذكر في كتابه الثاني أن الإمبراطور جوستينيان استدعى جرمان وعين القايد صولومون سنة 539م.

لقد عرفت هذه المدينة لدى الكتاب والجغرافيين اللاتين والإغريق منذ القرن الثالث ميلادي ، في الوثائق الكنسية ، ومن خلال النقوش بأسماء مختلفة وإن كانت متقاربة ، بحيث ذكرت مدينة zabi عند القديس أوبتاتوس الميلي أثناء حديثه عن ممثلي أسقفيتها ، و في قائمة ديغنيئاتوم والتي ورد فيها " أن زابي كانت مركزا عسكريا على الحدود وكانت تسمى بريوزيتوس لميتس زابنس ، والتي كانت تحت سلطة قائد إفريقيا " ، كما وردت الإشارة إليها في دليل رحلة أنطونينوس أغسطس والتي حددت موقع مدينة زابي فيما بين سطيف وسورالغزلان على الطريق الرابط ما بين هاتين المدينتين ، وعرفت عند جوليوس هونوريوس بمدينة زابي المحصنة ، كما ورد اسمها في صيغة تابيا tapia على قائمة فيرون ، ثم بعد ذلك باسم روبا rupia في كتاب

¹⁴ البكري أبو عبد الله) :المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب،تحقيق دوسلان،نشر مكتبة المثى بغداد ،ص:59.

¹⁵ - Payen ,(M) : op—cit ,pp148-145.

¹⁶ - Maguelonne,(J);op-cit ,p234..

¹⁷ - Poulle ,(A) :op-cit ,p,200.

مجهول رافان ، كما ورد إسم مدينة زابي في قائمة الأساقفة الذين حضروا إلى مجمع قرطاجة في سنة 484 م ، كما تعرض إلى ذكرها المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس دون أن يحدد بدقة موقعها ، فنذكر أنها فيما وراء مرتفعات الأوراس ببلاد موريتانيا الأولى¹⁸.

وقد عرفت مدينة المسيلة بأسماء عديدة منها زابي zabi -زابي جوستينيانا zabi-justiniana ساقى savi تافى tavi وهذا حسب ايتيكوس ETHICUS وكذا اسم مويك Muic حسب ترجمة ليون ريني¹⁹ LEON-RENE وقد ورد اسم مدينة المسيلة الرومانية زابي في وثائق عديدة منها قائمة ديغينتاتوم Notitia Digniatatum التي وردت فيها كمركز عسكري حدودي تحت سلطة قائد إفريقيا وقد كانت تدعى باسم prapositus Limitis zabens²⁰.

وقد ذكرت أسماء أساقفة المدينة في قائمة الأساقفة الذين حضروا مجمع قرطاجة 484م أمثال Felix الدوناتى بوسيسور و Possesor (484) وكريزانتيابوس Crescentiabus (411) في أراس²¹ أو تارمونت .

وإذا كانت المعلومات قليلة عن فترة الحكم الروماني بالمسيلة فقد جسدت وجوده الآثار المنتشرة في بشيلقا بالمسيلة وطبنة (بريكة) وأراس (تارمونت) وخربة الرصاص والجساسية. وكذا آثار قنوات المياه والسدود وأحواض المياه في مواقع عين قصب²² بين منان، مقطع الجديان، عين نكار، عين طبوشة، وآثار الحواجز المائية على وادي لقمان، ووادي اللحم، ووادي القصب، ووادي سلمان، كما تعتبر المنطقة الحدود الجنوبية لخط الليمس الروماني الذي يمر على شط الجريد ثم توزر ونقرين وباديس ومثلي وواحة الزاب، بعد أن يحيط بالا وراس في الجنوب متبعا وادي جدي، ومقسما المسيلة عرضيا محاذيا التل عبر بوغار وتيارت وفرندة لي تلمسان ومغنية²³.

أما المؤرخون المسلمون فقد تعرضوا إلى ذكر ووصف مدينة المسيلة الرومانية وصفا يكاد يكون واحدا، فهذا الجغرافي العربي البكري²⁴ وان كان متأخرا عن زمن نشأتها قد حدد موقعها ووصف أطلالها قائلا " تقع زابي على مقربة من مدينة المسيلة(وهنا يقصد البربرية) وهي إلى الجنوب منها وإن خرائبها تدعى القباب ". وعند ابن حوقل"هي مدينة محدثة (يقصد بها المحمدية الفاطمية)استحدثها

¹⁸-Vayssette,(E) :op-cit:1873,p,98.

¹⁹- Poulle,(A);op-cit,p196.

²⁰- Maguelonne (J) :,op-cit,p,233.

²¹- A.D.C(archive de la commune mixte de m'sila) :, monographie sur m'sila;

²²- Maguelonne,(J):op-cit,p,234.

²³- Sagne ,(J) :L'Algérie postarale ,Fontana,Alger,1950, p47.

²⁴-البكري: المرجع السابق،صص 17.59

علي بن حمدون الأندلسي أحد خدام ال عبيد الله وعبيدهم²⁵ . وبخصوص الأسمين القديمين روبيا وتوبيا و الاسم الحديث بشليقة او بشيلقا ، لا تفوتنا الإشارة إلى ملاحظتين أشار إليهما بعض الكتاب أولهما أن روبيا وتوبيا ما هما إلا تحريف للاسم القديم زابي وذلك بقلب الزاي مرة إلى راء ومرة أخرى إلى تاء من قبل الكتاب القدامى ، وثانيهما الفرضية التي طرحها الباحث كات في أواخر القرن التاسع عشر حين اعتقد أن اسم بشليقة مشتق من اللفظة اللاتينية بازيليكما والتي تعني الكنيسة.

أما من حيث النشأة فأنا لا نتوفر على المعطيات التاريخية اليقينية التي تساعدنا على تحديد الزمن الذي نشأت فيه فيه زابي zabi التي ربط المؤرخون اسم المسيلة بها ،سواء تعلق الأمر بالفترة السابقة للاحتلال الروماني أو أثناءه ، ذلك أن أقدم المخلفات المادية هي عبارة عن مجموعة من النقود ضربت في عهد الإمبراطور تراجانوس والذي تربع على عرش الإمبراطورية الرومانية في سنة 98 م ، وامتد حكمه إلى سنة 117 م ،بالإضافة إلى نقوش مكتشفة بخرائبها تعود إلى ما قبل النصف الأول من القرن الثالث ميلادي . غير أنه يمكن أن نعتقد أن مدينة زابي قديمة العهد ذلك أن حيوية إقليم المسيلة الذي تنتمي إليه المدينة يرجع إلى فترة موعلة في الزمن ، بحيث أنه لم يكن للرومان الفضل في اكتشاف هذه الحيوية وإنما استغلوها لتكريس هيمنتهم على المنطقة .

غير أن الأدلة غير متوفرة بالقدر الكافي نظرا لافتقار الموقع إلى تنقيبات منظمة من شأنها إجلاء الغموض ،وكشف وثائق قد تفيد في تأكيد مثل هذا الرأي أو دحضه .

إشكالية تاريخ تأسيس مدينة المسيلة البربرية و علاقتها بالمحمدية الفاطمية

قبل الحديث عن أصل التسمية التي يخط المؤرخون كثيرا بين اسم المحمدية التي أنشأها الفاطميون سنة 315هجرية 927م²⁶ ، وبين مدينة المسيلة التي كانت موجودة قبل ذلك ،وآراد أبو القاسم الأمير الفاطمي آنذاك بناء مدينة مكانها لتكون قاعدة أمان أمام القبائل الزناتية من جهة وكعاصمة جديدة لإمارته، بعد أن طرد بعض قبائلها من البربر إلى القيروان،وذكرت حينها باسمها الحقيقي أي المسيلة في كل الكتابات التي عاصرت بناء المحمدية .

25- ابن حوقل : صورة الأرض منشورات دار مكتبة الحياة ،بيروت ، 1992،ص85.

26-القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة ن تحقيق فرحات الدشراوي ، الشركة التونسية للتوزيع تونس ،ديوان المطبوعات الجامعية ن الجزائر تونس ، 1986 ، ص : 170. انظر كذلك- المراكشي (ابن عذارى)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تاريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري، تحقيق ومراجعة ج.س كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص190. أنظر كذلك:

Paul- Luis Combizat. : L'évolution des cités du Tell Ifrîkiya de VII au XI siècle. . p.157-164.

يجب التذكير هنا أن الحديث عن المسيلة القديمة خلال العهد الروماني والتي ارتبطت بموقع زابي كمدينة لم يذكرها الباحثون الأجانب الذين اهتموا بالتاريخ الروماني والبيزنطي دون غيرهما. تنسب المسيلة البربرية عادة إلى كلمة المسيل أو مدينة المياه السائلة وهذه التسمية مرتبطة بوفرة وتعدد المجاري المائية التي تتمتع بها المنطقة منذ فترات قديمة من التاريخ والتي تعبر عن وجودها بقايا الآثار القديمة الرومانية المجسدة في السدود وقنوات المياه والأحواض المخصصة للسقي الموضوع على الأودية والسواقي كواحي القصب ووادي لقمان ووادي اللحم ووادي سلمان، قبل أن تأخذ المدن طابعها المدني الواسع على النحو الذي بنيت عليه المحمدية الى جانب المسيلة البربرية .

هل المحمدية هي المسيلة؟

إذا كان تاريخ تأسيس المدينة الجديدة للمسيلة أو المحمدية الفاطمية²⁷ يرجعه كثير من المؤرخين و الكتاب إلى سنة 315هـ/927م عندما رسم معالمها الأمير الفاطمي أبو القاسم، وخطط عمرانها على ابن حمدون،²⁸ فإنما قامت في منطقة كانت تخفى آثارها وجود حضارات متقدمة شهدتها المنطقة قبل وخلال الاحتلال الروماني. كما أن المنطقة لم تكن في حالة فراغ بشري استدعى تعميمها، بحيث كانت تقطنها قبائل بربرية مثل بنوكملان ورنдах وصدراته ومزاته²⁹ وغيرهم، قبل أن يخرجهم آبا القاسم الفاطمي إلى فحص القيروان، بعد أن ساهمت هذه القبائل في مقاومة المد الفاطمي، لعله من باب التذكير بما يدحض الكتابات السابقة حول هذا الموضوع من خلال جملة من التمايزات بين المدينتين في التسمية والنشأة منها :

27- الروايات تختلف في تحديد سنة بناءها بين سنوات: 310، 313، 315، 323، ورجحت سنة 315هـ لما ورد في: عيون الأخبار، ص 217 الذي ينقل عن مصدر ضائع لابن الأسود بن الهيثم المعاصر للأحداث، أنظر بقيت التفاصيل في: البكري. المسالك 1/ 239ص، الإدريسي. نزهة المشتاق 1/ ص254، ابن الأثير. الكامل 6/ص718. ابن حماد. ملوك بني عبيد، ص 23، النويري. نهاية الأرب 28/ 112ص- 113ص (وعنده: علي بن حمدون الأويسي)، ابن عذاري. البيان المغرب 1/ 190ص، ابن خلدون. العبر 4/ص51، المقرئ. اتعاظ الحنفا 1/ص72، القلقشندي. صبح الأعشى 5/ ص107 ابن أبي دينار القيرواني. المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، تونس- بيروت: مؤسسة سعيدان- دار المسيرة، 1993، ص 72، وحسب روجي إدريس فإن تاريخ 313هـ يمثل بداية البناء ويمثل تاريخ 315هـ نهاية الأشغال. أنظر: الدولة الصنهاجية 1/ 47ص، 2/ ص91- 92، مرمول. السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص ص295-299،

28- البكري: المسالك والممالك، ج 2، ص 239

29- ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج 3، دار صادر، بيروت، ص 175 .

1- التمييز من خلال الكتابات التاريخية

خلال فترة الاغالبة وقبل ظهور الدولة الفاطمية في نهاية القرن الثالث الهجري كانت المسيلة ونقصد بها المدينة البربرية موجودة باسمها قبل تأسيس الحمادية التي نسبت خطأ الى المسيلة. حيث يذكر النويري "وعمر بن حفص الذي سار إلى الزاب، بما فيها المسيلة لبناء مدينة طبنة بأمر المنصور، واستخلف على القيروان حبيب بن يزيد بن المهلب،⁽³⁰⁾ فخلت إفريقية من الجند ففر البربر إلى حبيب فقتل، واجتمع البربر بطرابلس وولوا عليهم أبا حاتم الإباضي فهزمهم، فساروا إلى قابس وحاصرهم أبو حاتم وعمر مقيم بالزاب على إمارة طبنة."

مدينة الحمادية الفاطمية لا علاقة لها بالمسيلة البربرية إلا بالجوار كضاحية جديدة كبيرة إلى جانبها بطابع عمراني جديد وتحصين استراتيجي لم يكن معروف عند أهل المسيلة ، المستقرين الى جانب مزارعهم ومساكنهم ، وهذا ما لاحظته كثير من الرحالة والجغرافيون العرب الذين أطنبوا في وصف خيرات بساتينها ومحاصيلها. اسم المسيلة سابق لنشأة الحمادية ولقدوم المد الفاطمي وهو امتداد للوجود البربري بها لان السؤال الذي غفل عنه الكثير من الكتاب و المؤرخين العرب المحدثين ، هو كيف اختفى اسم الحمادية العربي بسرعة وهو اسم محمود (نلاحظ شبه إغفال تام لاسم الحمادية في الكتابات التاريخية ، حتى خلال الحكم الفاطمي ثم اختفاءها التام و سيادة اسم المسيلة خلال و بعد تأسيس الحمادية) ليعود اسم المسيلة كاسم أصلي و دائم لها .

وهو عودة إلى الاسم البربري الأول المستمد من كلمة " thamsilt تامسيلت" أو المسلة بالبربرية. لأنه ليس كاف العداء المذهبي من قبل قبائل المسيلة للشيعة الفاطميين أو عداء الحماديين في عهد المعز بن باديس أن تتحول بسرعة إلى اسم المسيلة خصوصا وان هذا الاسم ذكر كثيرا في كتابات المؤرخين العرب من المذهب الشيعي مثل ابن حوقل في كتابه صورة الأرض³¹ ، ويذكر ابن حوقل في وصف رحلته الجغرافية " من باغاية بها حصن قديم، إلى دار ملول: وهي مدينة قديمة، مرحلتان. ومنها إلى طبنة: المدينة القديمة والعظيمة، ذات البساتين الكبيرة والزروع الكثيرة، مرحلتان.

30- أحمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق: مصطفى أبو ضيف احمد ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، 1985 ، ص 233.

31- ابن حوقل : صورة الأرض ، حيث يكتب ص 85 ما يلي: "ومن مقره الى المسيلة مرحلة وهي مدينة محدثة استحدثها علي ابن الأندلس احد خدم عبيد الله وعبيدهم وعليها سور حصن من طوب ولها واد يقال وادي سهر فيه ماء عظيم منبسط على وجه الارض فليس بالعميق ولهم عليه كروم واجنة كثيرة تزيد على كفاياتهم وحاجاتهم ولهم من السفر جل المنعق ، ما يحمل الى القيروان ، واصله من التنس. ومن غلاتهم القطن والحنطة والشعير، وتكثر عندهم المواشي من النواب والأنعام والبقر. وعليها من البربر بنو برزال وبنو زنداج وهوارة مزاته. وعليهم صدقات وخراج غزير. ومنها جواز منهل ينزل الناس لإسكان به، وفيه ماء من عيون عذبة.

ومنها إلى المسيلة: الواقعة على واد يقال له وادي سهر، فيه ماء عظيم منبسط، وعليه كروم وأجنة كثيرة، مرحلتان. ومنها إلى مدينة الرمان: قديمة، ينفجر تحتها عيون ثرة طيبة، مرحلة. ومنها إلى هاز: وهي قرية كانت قديمة وعظيمة، مرحلة. ومنها إلى تاهرت القديمة: أربعة مراحل¹ وهو الذي عاصر عملية بناء المحمدية و فضل كتابة المسيلة في كتابه صورة الأرض باعتباره عاش خلال القرن الرابع الهجري ويعتبر من احد عيون العبيديين ، والمقريري³² في كتاب اتعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ،أو من المذهب السني مثل البكري³³ في كتابه المسالك والممالك ،وابن الأثير³⁴ في كتابه الكامل في التاريخ ،و ابن عذارى المراكشي في كتابه البيان المغرب ،و غيرهم ممن ذكروا المدينة باسم المسيلة '،حيث كتبت بفتح الميم و كسر السين و الياء الساكنة واللام بفتحة و الهاء الساكنة، عند كل من ياقوت الحموي³⁵ و البكري و الفلقشندی و ابن خلكان و غيرهم .

لذلك من الأرجح أن الكلمة بربرية وان ارتبطت بالمسيل المائي العربي الكلمة بدليل زوال الاسم الجديد" المحمدية" و اختفائه حتى من الكتابات التاريخية التي جاءت بعد القرن الرابع الهجري واستمرار اسم المسيلة مكانه ،وعلى هذا الأساس فان مدينة المسيلة كانت موجودة قبل و خلال عملية بناء المحمدية، و وجه الربط هو بناء المحمدية بجانب مدينة المسيلة على جانبي وادي القصب او وادي سحر ووادي الذهب المعروف عند سكان المسيلة بحي الأشياخ ،في الوقت الذي استمرت فيه مدينة المسيلة البربرية في موضعها الحالي في أحياء خربة تليس و الشتاوة و العرقوب و الكراغلة.

ومن خلال ذلك لا نستبعد من أن اسم المسيلة تزامن جنباً إلى جنب مع اسم المحمدية، فوجد هذا مع وجود الآخر كما رضي به العبيديون، ولم ينكروا على من سمي به المدينة، بدليل قول شاعرهم أحمد بن محمد المروذي، مادحا نزول القائم بأمر الله بها:

ثم إلى مدينة مرضية	أسست على التقوى محمديه
أقبل حتى أطلها ضحية	بالنور من طلعه المضئية
فحل في عسكره المسيلة	في هيئة كاملة جميلة

وجه الدلالة من هذه الأبيات الشعرية الثلاثة إلى ما ذهبنا، هو كون هذا الشاعر يمدح العبيديين، و المدح لا يكون إلا بالصفات والأسماء التي يحبها الممدوح، ويفتخر بها هذا الأخير، إذ من جملة ما ذكر من الأسماء في هذا السياق من المدح: اسم مدينة المسيلة.

³²المقريري:تعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ،الجزء 1 ص 72.

³³البكري:المرجع السابق ،ص239. -

³⁴ابن الأثير: الكامل في التاريخ الجزء 6/ص718

³⁵ياقوت الحموي:معجم البلدان، مج 3، دار صادر، بيروت، ص 172.

كما أنه ذكر المحمدية، وإن كان ذكره لها في المقام الأول سابقا عن ذكر المسيلة مما يدل على أن هذه الأخيرة كانت الشائعة في الاستعمال عند غير العبيدين الذين أرادوا رفع مكانة المحمدية بأولوية الذكر. إلا أن الشيء الملفت للنظر أن خصوم العبيدين من أهل السنة يسمون المدينة بالمسيلة لا المحمدية فالبكري³⁶ مثلا: ذكر المسيلة ست مرات، ولم يذكر المحمدية إلا مرة واحدة فقط، ليبين عليّة تسميتها بذلك، وهذا اقتداء بفعل وعمل المعز بن باديس ملك الدولة الصنهاجية الذي وصل إلى الحكم سنة 407هـ/1016م، حيث بدد سككهم (العبيدين)، وغير مكابهم ونقض موازينهم. وبصرف النظر عن اسم المسيلة الذي ذكر عند الشعراء والكتاب العرب من المذهبين السني والعبيدي نستنتج أن معنى لفظ "المسيلة" لا قدح فيه ولا مدح بالنسبة للعبيدين، بالتالي رضي به الشيعة وهذا الرضا دليل على وجود سابق لاسم المسيلة لم يكن لهم يد فيه لذلك اقتصر اغلب الكتاب عليه في الكتابات التاريخية و أهملوا اسم المحمدية . و إن كان سبب التسمية بالنسبة لمدينة المسيلة، يبقى دوما غائبا في كتب الرحالة و الجغرافيون العرب بغياب الأدلة: من نصوص و قرائن وفرضيات.

كما أن أنصار العبيديين من الرحالة كابن حوقل والكتاب العرب ذكروا كثيرا اسم المسيلة أكثر من اسم المحمدية وهذا دليل على ان المحمدية لم تظهر إلا كضاحية جديدة على حافة مدينة المسيلة البربرية. تعتبر كتب الرحالة الجغرافيون أهم مصدر في التعريف بمدينة المسيلة لذلك سنعمد في ذلك بالدرجة الأولى على الجغرافي ابن حوقل³⁷، لأنه أقدم من رصد لنا معلومات عن هذه المسألة بصورة مفصلة أكثر من اليعقوبي الأقدم منه، فضلا عن قيمتها التاريخية الفريدة، بحكم أن صاحبها جمعها بعد مطالعة للكتب، وسماع عن الأفراد، ورحلة ومعينة لهذه الأماكن، نظرا لتعاطيه مهنة التجارة. وابن حوقل الذي يعتبره المؤرخون من جانب العبيديين الشيعة واحد أعينهم قد أرفد اسم المسيلة في كتابه وهو دليل لوجودها قبل بناء الفاطميون للمحمدية. كما تذكر عند البكري بأنها "مدينة جليلة"، وهو وصف له دلالة على أهميتها و قدمها التاريخي ورغم تأخره عن ابن حوقل بأزيد من قرن، فمعلوماته تعتبر أكثر تفصيلا ودقة، بحكم اعتماده واطلاعه على روايات ومصادر أكثر منه.

و البكري استفاد رغم تأخره بكتابات ووصف اليعقوبي و ابن حوقل بالجمع بين كل ما أوردها هذان الجغرافيان من معلومات، بالنسبة لمنطقة المسيلة. كما يؤكد كلام ابن خلدون مسالة وجود المسيلة قبل المحمدية حيث يقول: "ومر بمكان بلد المسيلة وبها بنو كملان من هوارة، وكان يتوقع الفتنة فنقلهم الى فج القيروان و لما نقلهم أمر ببناء المسيلة و سماها المحمدية "

³⁶ - البكري: المرجع السابق، ص 237.

³⁷ - ابن حوقل: المرجع السابق، ص 85.

قال صاحب " الروض المعطار " ³⁸ "المسيلة من بلاد الزاب بالمغرب بقرب قلعة أبي طويل، وهي مدينة جليلة على نهر يسمى نهر سهر في بساط من الأرض. ومنبع نهر سهر من مدينة الغدير، وأسس المسيلة أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سماك الجذامي المعروف بابن الأندلسي، فلما أتمها أمره الشيعي عليها، فلم يزل بها أميراً حتى مات في فتنة أبي يزيد، وبقي ابنه جعفر أميراً فيها وولي بلاد الزاب كلها، وجعفر هذا هو ممدوح محمد بن هاني الأندلسي الشاعر المشهور، له فيه أمداح حسان، وكان من أكثر أهل زمانه إحساناً "والمسيلة كثيرة النخل والبساتين تشقها جداول المياه العذبة، وكانت مدينة عظيمة على نظر كبير، وحواليها قبائل كثيرة من البربر من عجيسة وهوارة وبني برزال. وبها أسواق وحمامات، ويجود عندهم القطن وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر، وبها عقارب مهلكة لا يخلص من لدغها والعياذ بالله". هذا الوصف ينم عن تأخر صاحب الروض في تفصيل ما سبقه من أحداث تخص نشأة مدينة المسيلة، ففي الوقت الذي يذكرها بأنها مدينة جليلة، على نهر سهر ويسهب في الوصف بما سبقه الأولون الذين عاصروا بنائها كابن حوقل، إلا أنه يربط نشأتها بابو القاسم الفاطمي.

التمييز بالسكان³⁹:

وقيل "إن المسيلة المستحدثة أحدثها علي بن الأندلسي في ولاية ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، وهي عامرة في بسيط من الأرض ولها مزارع ممتدة، ولأهلها (أي البربر) سوائم وخيل وأغنام وأبقار وجنات وعيون وفواكه وبقول ولحم ومزارع قطن وقمح وشعير، وبها قوم من البربر والتجار، وبها ماء كثير منبسط على وجه الأرض عذب، وفيه سمك وفيه طرق حمر لم ير في الدنيا سمك على صفته، وأهل المسيلة يفتخرون به، قدره من الشبر فما دونه، وربما اصطيد منه الشيء الكثير واحتمل إلى قلعة بني حماد، وبينهما اثنا عشر ميلاً". كما يذكر أغلب من كتب حول تأسيس المحمدية أن أبو القاسم الفاطمي نقل قبائل بنوكملان ورنجاح وصدراثة ومزاته من المسيلة إلى فحص القيروان بسبب محاربتهم إلى جانب القبائل الزناتية، نلمس كذلك من هذا الوصف للبكري أن أهل المسيلة ذكروا بهذا الاسم تمييزاً لهم عن غيرهم من العرب الفاتحين من جهة، و تمييزاً لهم بحرفهم وزراعتهم التي لم تكن منتشرة عند العرب الفاتحين، وهذه الأوصاف نرصد من خلالها أن المسيلة قديمة بكثير عن المحمدية التي أنشأها الفاطميون وربط الكتاب اللاحقون من بعدهم اسمها بالمسيلة.

³⁸- للمزيد ينظر إلى: الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت .

³⁹- ينظر إلى ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكاردار الفكر بيروت 2000 ج 6 ص 192.

التمييز بالدلائل المادية:

انطلاقاً من بقايا الشواهد المادية التي يمكن ربط المكان بالتاريخ حول وجه الربط بين مدينة المسيلة البربرية ومدينة المحمدية الفاطمية، فقد كان موقع المحمدية على حافة المسيلة وبجوارها في موضع لصيق بها بمكان يسمى عند أهل المنطقة بالأشياخ التي تحولت بعد خرابها على اثر الحروب التي حدثت بالمسيلة سواء بين الخوارج والفاطميين او بين هؤلاء والنكاريين في ثورة أبي مخلد بن كيدا داو بين عائلة بني حمدون وبعد تأسيس قلعة بني حماد وانتقال مقر السلطة والإمارة إليها، ودليل ذلك قطع النقود الفاطمية التي عثر عليها بهذا المكان والأواني الفخارية والصحون ذات الطابع الفاطمي الإسلامي⁴⁰ التي يوجد البعض منها بمتحف الحضنة بالمسيلة.، وما تزال هذه المنطقة تحتزن هذه الشواهد تظهر في كل عملية حفر بها. هذا في الوقت الذي لم نعثر على أية بقايا من هذا الصنف خارجها بنواحي المسيلة، ومن جانب آخر تفتقد مدينة المسيلة بحكم طابعها الترابي الى أية آثار رومانية إلا ما نقل من زابي zabi الرومانية.

خلاصة:

رغم أن الإشكالية في الاسم لم يفصل فيها الكتاب والمؤرخون بين المسيلة واسم زابي zabi بحيث لم نعثر في الكتابات التاريخية القديمة اللاتينية على اسم المسيلة كما تعرف حالياً، ولا حتى في النقوش الأثرية الرومانية. إلا أن الكتابات الأجنبية الحديثة التي تلت الاحتلال الفرنسي ربطت المسيلة المدينة البربرية الأصل التي تقع على وادي القصب بالمدينة الرومانية زابي جوستيانا التي تبعد باربعة⁴¹ كيلومترات شرقها. وعلى ضوء ذلك نستخلص أن نشأة المسيلة البربرية الأصل أقدم من ظهور الفاطميين ببلاد المغرب ومن سنة تأسيس مدينة المحمدية سنة 315/927م التي نسبت إليها المسيلة، وان المحمدية لم تكن سوى ضاحية جديدة للمسيلة البربرية، وان المسيلة البربرية ليست هي زابي جوستيانا الرومانية، كما ربطها الفرنسيون وباحثي التاريخ اللاتيني الروماني، ولم تكن المسيلة سوى بلدة بربرية على مقربة من حصن روماني يسمى بزابي جوستيانا نسبة إلى الإمبراطور البيزنطي جوستيان، وأنها كانت نواة لظهور وتوسع المدينة الإسلامية الفاطمية التي أخذت اسم المحمدية الى جانب اسم المسيلة التي استمر اسمها في مختلف الكتابات التاريخية، بينما اختفى اسم المحمدية كما اختفت معه الدولة والخلافة الفاطمية بعودة المذهب السني بفضل المعز بن باديس الحمادي منذ 440 هـ.⁴²

⁴⁰ - هناك بقايا اواني فخارية ونقود فاطمة محفوظة بمتحف الحضنة بمدينة المسيلة وجدت بالمكان..